الباب السادس

موقف دول الاسلام من السقوط

obeikan.com

obeikan.com

سلم أبو عبدالله الصغير غرناطة بعد صلح عقده مع فيرناندو يقتضي بتسليم غرناطة وخروج أبو عبدالله الصغير من الأندلس، لكن سرعان ما نقض هذا الأخير العهد وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب والقتل والنفي، وبدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين واليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت وقد تمسك أهل الأندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني وحسب الرواية القشتالية الرسمية لم يُبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع النصراني وبقوا في معزل عنه يقومون بشعائرهم الإسلامية ويدافعون عنها بكل تفان وحتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجأوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية وأخفوا الإسلام فكانوا يتوضأون، يصلون ويصومون كل ذلك خفية عن أعين الوشاة والمحققين.

يتحدث مول في كتابه عن قرية مويل ، فيصف كيف يصنع سكانها الأندلسيون الخزف ويُضيف :قالوا لي إن القرية ليس بها سوى 3 مسيحيين قدامى هم الكاتب الشرعي والقسيس وصاحب الحانة أمّا

الباقون فهم يُفضّلون الذهاب إلى مكة للحج عن السفر إلى كنيسة سانتياجو في جليقية .

سنة 1601م كتب المطران ربيرا مهندس قرار الطرد تقريراً عن الوضع قدمه إلى الملك وقال فيه:إن الدين الكاثوليكي هو دعامة المملكة الأسبانية وإن المورسكيين لا يعترفون ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ولا يعملون شيئاً من الأمور التي يقوم بها النصارى ثم يضيف:إننا لا نثق في ولائهم لأنهم مارقون وهذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة لكنه يرجع إلى العزم الراسخ في أن يبقوا مسلمين كما كان آباؤهم وأجدادهم ويعرف مفتشو العموم أن المورسكيين -بعد أن يحجزوا عامين أو ثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة فإنهم يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة لأنهم لا يريدون معرفتها ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئاً يجعلهم يبدون نصارى وفي تقرير آخر يقول المطران نفسه:إن المورسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل وإن كل وسيلة للرفق بهم فشلت وإن أسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها إلى أخطار كثيرة وتتكبد في رقابتهم والسهر على حركاتهم وإخماد ثوراتهم كثيرا من الرجال والمال .

وجاء في قرار الطرد الخاص بمسلمي بلنسية: ...قد علمت أنني على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير مورسكيي هذه المملكة ومملكة قشتالة كما علمت بقرارات العفو التي صدرت لصالحهم والإجراءات التي اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس وقلة الفائدة الناتجة من كل ذلك فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد بل زاد عنادهم .

موقف ملوك وسلاطين الممالك الإسلامية من سقوط غرناطة

موقف سلاطين بني مرينكان مسلموا الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب، لا سيما ملوك بني مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها.

فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور 815 هـ/1286م مثلاً، عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس فساهم بذلك في إنقاذ غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة وأرجون.

لكن رغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة، كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية فقط، بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله.

ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا بدور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة، وضد جيرانهم من جهة ثانية بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص،التي حالت دون تمكن المرينين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس، بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الأسباني والبرتغالي.

يقول المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي زار شمال أفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة :...ووقع بفاس وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات

عدة مدن من منابر العدوة مثل طنجة، وأصيلا وغير ذلك ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا.

ومنذ أن كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الأسبان ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون جاد لمسلمي الأندلس.

يقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة :إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم، فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا.

<u>موقف السلاطين الحفصيين</u>

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجئون إلى ملوك بني حفص خصوصا عندما لا يجدون من ملوك المغرب آذانا صاغية فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدونه ويطلبون منه النجدة والمدد وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبَّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها قد درسا

ولم تكن بلنسية وحدها هي التي بايعت أبا زكريا الحفصي، وطلبت منه المدد بل قد بايعه كذلك أهل أشبيلية، وأهل المريَّـة إلا أن موقف أبي زكريا الحفصي من استنجاد أهل الأندلس لم يكن يتناسب مع خطورة الوضع ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف وهو ما لم يكن يقدر عليه أبو زكريا الحفصي لذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام والسلاح والمال.

لكن هذا المدد لم يصل إلى المحاصرين في بلنسية.كما أرسل بمدد آخر أثناء حصار أشبيلية، لكن المدد استولى عليه العدو، كما استولى على أشبيلية فيما بعد.

وأثناء حصار غرناطة، أو بعد سقوطها لم نجد فيما رجعنا إليه من المصادر ما يدل على أن أهل الأندلس استغاثوا بأمراء بني حفص ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيامـها، ولم يكن بمقدور أمرائـها أن يقدموا أي جهد حقيقي لدعم مسلمي الأندلس.

خصوصاً إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الأسباني أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم يعتبر من أفضل جيوش شمال أفريقيا، قد تحلل وأصبح عاجزاً عن مقاومة أي عدو بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فساداً في البوادي، وأطراف المدن، الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين والأسبان والزنوج وغيرهم.

موقف ملوك الدولة الزيانية

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجئون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل فمن ذلك أنه عندما ضيق الأسبان الخناق على غرناطة أستصرخ ملكها أبو عبد الله أبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستنجد أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير لسان ابن الخطيب يذكر فيها أنهم :... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقاً أشدّ مما هم عليه الآن وذكر أن ملك النصارى جمع لهم جيوشاً من سائر الأمم النصرانية وأنهم قاموا

بحرق الزروع والمسلمون ليس لهم مغيث يلجأون إليه – بعد الله – سوى إخوانهم في الدين وذكر أنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة وأنهم لا يملكون غير أنفسهم، وقد بذلوها في سبيل الله وهم ينتظرون نجدتكم فقام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة، والخيل، والطعام وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

وكما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين لا تؤهلهم للدفاع عن بلادهم، فضلاً عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة لذلك تعذر على ملوكها تقديم أي دعم جاد لأهل غرناطة أو غيرها وسوف يتبين لنا لاحقاً أن المملكة الزيانية كانت أضعف من أن تساهم في إنقاذ الأندلس.

موقف سلاطين دولة المماليك في مصر

في أواخر القرن الخامس عشر، أرسل مسلمو غرناطة إلى الملك الأشرف قايتباي 1468-1496 سلطان المماليك فى مصر، يرجونه التدخل لإنقاذهم من ظلم ملوك المسيحيين فاكتفى الأشرف بإرسال وفود إلى البابا، وإلى ملوك أوروبا يذكرهم بأن المسيحيين في دولته يتمتعون

بكافة الحريات، بينما إخوته في الدين في مدن أسبانيا يتعرضون لشتى ألوان الاضطهاد وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهي التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكفَّ ملوك أسبانيا عن اضطهاد المسلمين وطالب بعدم التعرض لهم، ورد ما أُخِذ من أراضيهم.

لكن الملك فرديناندو، والملكة إيزابيلا لم يريا في مطالب سلطان المماليك وتهديده ما يحملهما على تغيير خطتهما في الوقت الذي كانت فيه قواعد الأندلس تسقط تباعاً في أيديهما إلا أنهما بعثا إليه رسالة مجاملة ذكرا فيها :أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين، والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب وأن المسلمين إذا شاءوا الحياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية.

لم يتمكن الباحثون من معرفة مصير هذه الرسالة، كما أنه لا يلاحظ في سياسة مصر المملوكية نحو الرعايا المسيحيين في مصر، أو في القدس ما يدل على أن السلطان المملوكي قد نفذ تهديده.

ويبدو أن السلطان قايتباي لم يتمكن من إغاثة مسلمي الأندلس بسبب انشغاله بتحركات بايزيد ورد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية

بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور هنا وهناك ومن ثم فإن الجهود المصرية وقفت عند الاكتفاء بالجهود الديبلوماسية وتركت الأندلس تواجه قدرها بنفسها كرر الأندلسيون استغاثتهم بالملك الأشرف قانصوه الغوري 1501-1516 سلطان مماليك مصر والشام داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين فرديناندو وإيزابيلا لاحترام معاهدة الاستسلام، ووقف أعمال الاضطهاد ضدهم فأرسل الغوري وفداً إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين لكن فقهاء المسلمين عارضوا معاملة الرعايا المسيحيين بالمثل، محتجين بأن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه فأرسل إليه الملكان سفيراً أقنعه بأن المسلمين يعاملون معاملة حسنة وأن لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الأسبان وهكذا خابت آمال المسلمين الأندلسيين في تلقي أي دعم أو مدد من سلطان المماليك قانصوه الغوري الذي يبدو أنه كان مشغولاً هو الآخر فى حروبه مع العثمانيين، إضافة إلى أنه لا يملك أسطولاً قوياً يمكنه من مواجهة الأسبان أقعدته عن إغاثة الأندلسيين.

موقف السلطان محمد الفاتح

أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاماً سفارة على إستانبول، وجهوا فيها نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم لكن كان في حكم المستحيل أن يستجيب السلطان الفاتح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر مضطراً إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع وجنوة، ونابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعدداً من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديداً للدولة العثمانية.

موقف السلطان بايزيد الثانى 21

ثم استنجد الأندلسيون مرة أخرى بعد وفاة الفاتح بابنه السلطان بايزيد الثاني 1480-1511، إلا أن السلطان بايزيد كانت قد تزاحمت عليه أزمات داخلية وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها : صراعه مع أخيه جم ، وحربه مع المماليك في أدنة سنة 1485-1491، بالإضافة إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر، والبندقية ثم تكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا يوليوس الثاني، وجمهورية البندقية، والمجر، وفرنسا وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت إلى تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم وانتهى حكم

السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه، أفضى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة ،والتضييق عليهم وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رئيس إلى الشواطئ الأسبانية سنة 1486 فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الأسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا وحسب رواية أخرى لم تثبت صحتها فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، تم عقد اتفاق آخر على تحالف بين الحفصيين والعثمانيين والمماليك لدعم مسلمي الأندلس وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولاً إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إلهاء سيطرة الأسبان ؛ بينما يستغل الفرصة ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال أفريقيا إلى الأندلس لنجدة المسلمين هناك وهكذا بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن

العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنها كمال رئيس على السواحل الأسبانية لم تثن الملكين الأسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من أسبانيا المسيحية وبهذه المواقف التي رأيناها يتضح لنا أن سقوط غرناطة وضياع الفردوس المفقود ارتبط بعدد من الأسباب التي كان يمر بها العالم الإسلامي وقتها وضياع غرناطة، وما تبعه من طرد المسلمين كان نتيجة متوقعة في ضوء الأحداث التي مرت بها الأمة.

وثيقة إنجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة

كشف الدكتور خوسيه جوميث سولينيو في المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسباني الذي اختتم أخيراً في مدينة مالقة، جنوب أسبانيا، عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن ومدى الترف والأبهة التي تميزت بها قصور غرناطة والبلاط الملكي، وأثر الحصار الذي فرضته القوات الأسبانية على أهالي مدينة غرناطة، حتى اضطرهم إلى أكل الكلاب والقطط، ويخلص إلى أن العرب دفعوا ثمناً باهظاً للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا

ويذكر المؤلف أن عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد قوات غرناطة، مخالفاً بذلك الرواية المتواترة من أن جيش غرناطة كان كبيراً، وتضيف الوثيقة أن أهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، مما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط وتتعرض الوثيقة أيضاً للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان بعد الفتح ففي مسجد غرناطة كان هناك 300 مصباح من الذهب والفضة وعثر ملك أسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجدويذكر المؤلف الإنجليزي أن الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين إلا بما يستطيع كل واحد منهم أن يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة والسلاح، لهذا فان الجيش الأسباني وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق ويشير الدكتور جوميث سولينيو إلى أن الوثيقة تذكر أن افتتاح غرناطة تم عام 1491، والصحيح هو 1492، والسبب هو أن السنة الجديدة لدى الإنجليز كان تبدأ في 25 مارس وليس الأول من شهر يناير ويختتم الدكتور جوميث سولينيو بحثه حول تبعات سقوط غرناطة فيقول ان انهيار الحكم العربي في هذه

المدينة كان له صدى كبير وواسع جداً ليس فقط في أسبانيا انما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.

أهم المصادر والمراجع

1. وصف الأندلُس وصقليَّة- مُحمَّد بن علي المصري التوزري ابن الشبَّاط.
2. المعجب في تلخيص أخبار المغرب -المُرَّاكشي.
3. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -المُقري التلمساني.
4. الإسلام في غرب البحر المُتوسِّط -إبراهيم أحمد العدوي.
5. دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان.
6. كتاب الأغاني-أبو الفرج الأصفهاني.
7. العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المُتوسِّط - عُمر فرُّوخ.
8. الكامل في التاريخ -ابن الأثير الجزري.
9. تاريخ المُسلمين في الأندلُس- مُحمَّد سُهيل طقّوش .
10. تاريخ الدولة الأُمويَّة - مُحمَّد سُهيل طقُّوش .